الهوية، والغيرية، والمكان في الاستشراق جنسياً.

مفيد نجم *

تكتسب دراسة الاستشراق أهمية خاصة من خلال الدور الذي لعبه في تشكيل الصور المجنوسة والمجنسنة للشرق في الخطاب الثقافي الأوربي والأمريكي عبر التمثيل المسبوغ بطابع إيروتيكي، باعتبار أن الشرق مكاناً وشعوباً، يمثل الآخر في هذه الثقافة، وفي محاولة جديدة، تنطلق من دراسة فكرة الفضاء، وما تتمتع به من أهمية خاصة، يقدم الباحث التركي إرفن جميل شك في كتابه - الاستشراق جنسيا - قراءة جديدة للوسائل التي تجعل الأمكنة مؤنسنة، عندما تكتسب المعاني التي تتخطى صفاتها الفيزيائية، ذلك أن صياغة الاختلافات بين الذات والآخر، ترتبط غالباً بصياغة الاختلاف بين الـ «هنا» والـ «هناك».

ويوضح الباحث في مقدمة الكتاب أن المفاهيم المكانية مثل «شرق» و«غرب» عند البعض تشكل معتقدات ثابتة حول الناس الذين يسكنون بعض المناطق المحددة من العالم، وأنها سوف تعزز دور المكان المتصور اجتماعياً في الحياة والممارسة اليومية لكنه عندما يجري تشريب المكان بالمعنى، ويجري تصوره معرفياً، وتجري قسمة العالم إلى أقاليم، فإن سكان المناطق المختلفة، يعاد تصورهم بطرق تخدم أهدافاً أساسية، وهنا تظهر الأهمية الخاصة لخطاب المكانية الذي يبني عليه الباحث تصوره لمفهوم الاستشراق جنسياً.

اكتسب موضوع/ الجنسانية الشرقية/ منذ القرن الثامن عشر مكانة خاصة في الإنتاج الفني الكتابي، والبصري في الغرب، وقد تجلى ذلك في صور الحريم وسوق الرقيق والحمام التركي والمحظيات، وتعدد الزوجات، والجنسانية المثلية، وساهم تفسير هذه الظاهرة الأحادي البعد في وجود تصلب تفسيري تؤدي من خلال محاولة الاعتراف بالهامشية إلى تكرار ملائم للمسافة التي لا يمكن اجتيازها بين الهامش والمركز كما تؤكد سارا سوليري. وقد لعبت الجنوسة دوراً هاماً في المشروع الاستعماري، إذ إن نموذج علاقة الرجل مع المرأة قد استخدم لتشكيل علاقة الأوربيين مع الشعوب المستعمرة، حيث قدم اختلاف الرجل عن المرأة موضوعات تم على أساسها استيعاب الاختلاف بين الأوربي، وغير الأوربي استيعاباً سياسياً.

من هنا فإن رؤية الفضاء كمقوم فاعل وتكويني للاجتماعي لم يجر تمثلها بشكل كامل من قبل العلم الاجتماعي، ولذلك ينطلق الباحث في دراسته لمفهوم الاستشراق جنسياً من وجهة نظر تصورية اجتماعية بصورة أساسية، لأن العلاقة بين الشخص والفضاء المحيط به، تتوسطها بنى دلالية معقدة، ومشتركة تدين بوجودها للممارسة الاجتماعية وقد لعبت الأساطير

* كاتب من سوريا.

المكانية دوراً كبيراً في أوربا إبان العصر الحديث، وكان جوهر هذه الأساطير هو الاختلاف المنشأ جغرافياً، الأمر الذي أدى إلى جعل صفتي الجنوسة والجنسانية أساسيتين ومنسوبتين إلى الفضاء المبني اجتماعياً، فكانت الصور المجنسنة للرجل والنساء في خطابات أوربا عن الآخر محددات للهوية والغيرية. ويكشف إرفن عن الطابع الانتقائي لمادة دراسته، والتي تركزت على الكتب المجهولة، التي تطبع عادة للمشتركين نظراً لأن هذه المؤلفات الإيروتيكية الأجانبية تعتبر المثال الأكثر نقاء على إضفاء الصفة الإيروتيكية على الشرق، وساكينه مما أدى في خطاب استخدم اللغة والمخيلة المجنوستين والمجنسنتين إلى بناء تمثيل للجغرافيا السياسية، ولدعم المشروع الاستعماري.

وبما أن الهوية هي مركب مبني اجتماعياً، فإنها تلعب دوراً حاسماً في السلوك الإنساني لأن الإنسان يتصرف في الحياة انطلاقاً من وضعية محددة، وعلى أساس رؤية معينة للعالم، إذ يلجأ إلى تفسير المعطيات على أساس تصورات مسبقة، أو نماذج ذهنية محددة، إلا أن هذه الهوية تكون في الوقت نفسه غير مكتملة، وهي قيد البناء على نحو دائم لأنها سيرورة. وفي نقده لوجهات النظر البنائية لمفهوم الذات، يعرض لوجهة النظر التي تعطي للغة دوراً أولياً، كما هو الحال بالنسبة لدريدا وفوكو، حيث تركز على الخبرة المعاشة، والعلاقات الاجتماعية كما هي عند بورديو.

وفي تصوره للعلاقة بين الهوية والغيرية والمكان، يتناول أولاً كيفية بناء الذات والعالم، حيث تساهم الأنماط والبنى في تحديد سلوك الأفراد، وتحديد هوياتهم، التي لا ينفصل بناؤها عن بناء الغيرية، والعلاقة بين «الذات» و«الآخر» والتي لها تاريخها الطويل في الفكر



الأوربي. ولذلك يجعل ما يسميه بـ «الخارج التكويني» أساس مشروعه في هذا الكتاب، مع التأكيد على الصلات بين الهوية والغيرية والمكان إثر توسع العالم، وتكون الوعي الأوربي الكوني، لكنه إذا كانت الهوية متلازمة مع المكان، وإذا كانت الهوية لا معنى لها إلا في سياق الغيرية، فما هي الاستنتاجات التي يمكن للمرء أن ينتهي إليها حول العلاقة بين الـ «هنا» والـ «هناك»؟

ويجيب إرفن عن هذا السؤال بأن كل واحد من هذين المفهومين يعرف الآخر فالـ «هناك» يبدأ عندما ينتهي الـ «هنا»، وهكذا يكون الاختيار لكتب الرحلات مرتبطاً بهذا المفهوم، فهما تتشكلان من خلال السردية في روايات الرحلات الحقيقية منها والخيالية وقد كان الأدب واحداً من الوسائل التي جرى بها تعزيز الإمبراطورية الأوربية على نحو استطرادي.

وحول بناء فضاءات الآخرية، يرى إرفن أن ممارسة السلطة شبيهة بالزوابع فهي تنتج أمكنة الهوية والغيرية، وتعيد إنتاج آواليات التضمين والاستبعاد السائد في المجتمع الغربي، وقد نبعت أهمية تمثيل بعينه للمكان الأجنبي، في جزء منها من تلك القدرة الدلالية للمجازات المستخدمة في بنائه، فالأماكن تأخذ معانيها من الأحداث التي تقع فيها، والدلالات التي يتسم بها المكان يجري ترسيخها من خلال بنية اجتماعية سواء عبر إجماع ثقافي، أو الهيمنة. كذلك فإن الفضاء الأسطوري يقع في هوامش المعروف حيناً، وحيناً آخر يتكون في البيئة المعاد بناؤها اجتماعياً. لقد كانت الحرائم في النسق العام الغربي هي العملية التي جرى بواسطتها بناء فضاءات الآخرية، وعلى نحو متعمد، ولذلك تمت عملية جنسنة البلد الأجنبي، وإضفاء الصفة الغرائبية على الجنس أيضاً. فكان أن أصبحت

الاستشراق جنسياً
المؤلف: إرفن جميل شك
الترجمة: عدنان حسن
منشورات دار قدموس - دمشق 2003

الجنسانية أحد العوامل التي ساهمت في بناء الهوية والغيرية، ولا تزال هذه الممارسة تفعل فعلها حتى الآن في الثقافة السياسية الأمريكية المعاصرة.

ويعود ليطرح سؤاله الأساس بخصوص اللجوء إلى الجنسانية للبناء السردي لفضاءات الأخرية، فيرى أن الكثير من الأنماط المقولبة في الثقافة الغربية قد بنيت على هيئات قطبية مجنوسة، مثل ثقافة وطبيعة، وعقل وجسد، وشكل ومادة.. الخ، فكان القطب الأول يرمز إلى المذكر المركزي، والثاني إلى المؤنث الهامشي، ولكي يؤدي النمط المقولب وظائفه الدلالية بصورة ناجحة، لابد من الرجوع إلى منظومات أخرى، من المنظومات المقولبة التي يستمد الدعم المعرفي منها، فوراء ازدواج الأنماط الجنوسية أو العرقية، أو الأثنية المقولبة سبب آخر، هو أن الإيروتيكا كانت ملائمة بشكل خاص للاستخدام من قبل الخطاب الأجانبي.

إن بناء الفضاءات المجنسنة للأخرية، يرتبط بالتباين بين الداخل والخارج، لأن الاختلاف هو الذي يصنع المكان، وقد لعبت الجنسانية دوراً أساسياً في إبراز الاختلاف، وقد خدم ذلك الضرورات المحلية والعالمية، معرفاً الذات، وبانياً تمثيله للآخر باعتباره أرضاً يجب غزوها، إلا أن المحور الآخر الذي بنيت حوله فضاءات الأخرية هو الزمن، إذ إن التاريخ أو الوعي الجديد في أوربا قد انطوى على مفارقة تمثلت في وجهة النظر غير التاريخية عن المجتمعات غير الأوربية، والمساواة بين المسافة الزمنية والمسافة التاريخية، ليست ظاهرة حديثة، حيث كانت النزعة التاريخية سبباً في إدراك الأوربيين لتميزهم الخاص باعتبار أن الزمن يرتبط بالتقدم، كما كانت في الوقت عينه سبباً في إنكار السيرورة ذاتها على المجتمعات غير الأوربية.

القسم الثاني من الكتاب، يبحث في نقوش الجنوسة والجنسانية بدءاً بالأدب الإباحي الأنثي، ويركز الباحث هنا على دور الخطاب الأنثروبولوجي/ الإثنوغرافي، في الجنسانية، باعتباره كان أداة لممارسة السلطة الجيو سياسية، فقد نشرت كتب كثيرة حول جنسانية الآخر، أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وحتى بعد مرحلة أفول الاستعمار، ويقدم الباحث عرضاً لحشد من هذه الكتب، كذلك شهدت بداية العصر الحديث في أوربا عدة ظواهر، شكلت الأساس لجنوسة وجنسنة الجغرافيا العالمية، ففي بريطانيا ساهمت البنية الطبقية المتغيرة، التي شكلت أساس المشروع الاستعماري في ظهور الجنوسة، باعتبارها ينبوع كنايات عن التطور الاقتصادي والسياسي.

لقد كشفت هذه المؤلفات الجنسانية عن التماثل، والطبيعة غير المتغيرة للشرق، ومن أجل فهم المعنى الذي يجعل هذه الكتب تؤلف خطاباً، يبحث في العلاقة بين المجاز والمتغيرية، ومنذ البداية يشير إلى خاصتين تصدمان الباحث، وتبدوان متناقضتين، وهما التكرار الممل جداً للموتيفات ذاتها، والنوادر والأنماط المقولبة ولم يفعل المؤلف سوى اقتباسها من عمل آخر، ثم هناك الثروة المدوخة من التوكيدات المتناقضة التي تخفق في تأكيد مصداقية الأدب الجنساني برمته.

وللرد على بعض الأراء التي ترى أن خطاب الاستشراق ليس موحداً في رؤيته إلى الشرق، يؤكد أن التمثيلات المجنوسة والمجنسنة للمكان الأجنبي، وللآخر قد تشكلت تشكلاً استطرادياً، وكان تعدد الخطاب بعيداً عن إخضاع وجوده للسؤال مكملاً له، كما أن التناقضات والانشطارات داخل الاستشراق لا تمثل تحدياً لوحدته وهيمنته، كذلك فإن صدقية الخطاب تستدعي سؤالاً حول كيف تكون المرأة الشرقية قذرة في حين أنها تكون في كتاب آخر مهووسة بحمامها وزينتها، ويفسر هذا التناقض على أساس أن الخطاب الأجانبي كان في أساسه مجموعة من المجازات، التي هي ليست بالضرورة متساوقة تبادلياً فيما بينها، فإذا كان واحد فيها ينجز وظيفة محددة في عملية تعريف أوربا لذاتها من خلال (الأخرنة) في المشروع الاستعماري، فإن هذه

الصورة المجازية شكلت أساساً للوعي البرجوازي الصاعد لذاته باعتباره نظيفاً ولائقاً ومتميزاً عن الطبقات الرثة. كذلك فإن تركيز الخطاب الاستشراقي على الحمامات التركية يسعى لتأكيد أن المرأة الشرقية فاسقة وشهوانية. في حين أن المرأة البرجوازية الأوربية المجتهدة، هي مضحية وغير جنسية. كما أن الجنسانية المتأصلة جعلت الأخر عاجزاً عن حكم نفسه، وهو ما يبرر الحاجة للاستعمار.

ويعود الباحث في دراسته للجغرافيا المجنوسة، والإمبراطورية المجنسنة إلى تأكيد أن جنوسة المكان ذات تاريخ طويل في الثقافة الغربية. وهي تعود على الأقل إلى رسم خارطة أوربا على شكل امرأة في عام 1537 . وقد وصفت كتب الرحلات الشرق في أحيان كثيرة، بأنه «المؤنث الأبدي». ثم يناقش الخيط المشترك للجنسنة بشيء يوحي بالتناقض، فإذا كان البلد الأجنبي يظهر بوصفه امرأة يجب إخضاعها، فإن الخطاب السياسي البريطاني في القرن السادس عشر، كان يعتبر إليزابيث الأولى هي (الملكة العذراء)، وهي العاهل الذي أطلق باسمه مشروع الاستعمار برمته. لكن هذا لا يعني أن ليس هناك فرق بين الأشكال الأنثوية لأوربا، والاشكال الممثلة لأجزاء أخرى من العالم، فالترتيب الهرمي، ولباس الأشكال أو عريها، تشير إلى التفوق الأوربي، وهناك مجاز آخر يشير إلى أن البلد الأجنبي هو امرأة جامحة تحتاج إلى ترويض.

لقد أدت هذه الازدواجية أدوراً متعددة، فهي أطرت المشروع الاستعماري ضمن سياق السيطرة الجنسية للرجل على المرأة، واختزلت جرماً سياسياً، يحتاج إلى الشرعنة. لكن الهوية عملت في اتجاهين. مثلما الرغبة الجنسية جندت دعماً لقيام أوربا باستعمار، واكتشاف الدول الأجنبية، كما أنها شاركت في تشكيل الرغبة الجنسية. إن البلد الأجنبي قد مثل فردوساً حسياً شهوياً، وملاذاً جنسياً والخطاب الاستعماري، شكل جانباً واحداً من الممارسة القديمة العهد لجنوسة وجنسنة الجغرافيا، ولتقديم الآخر، بوصفة كلي الجنس.

واللافت للنظر أنه بمقدار ما كان يتم التشديد على جنسانية الآخر الأنثى بوصفها جامحة ومهددة، فإنها قد صورت باعتبارها خطراً كبيراً على المستكشف الأوربي في حين أن الآخر/ الذكر، هو أقل رجولة من الأوربيين، كما أنه في الوقت نفسه كان مفرط الجنس على نحو خطير، وبشكل تهديداً للنساء البيضاوات تحديداً، أو الآخر/ الأنثى في الخطاب الاستعماري، فكان اغتصابه يثير الاشمئزاز في العاصمة الإمبراطورية، كذلك كان الآخر/ الذكر مضطهداً واستعبادياً للنساء.

لقد شكلت نساء الحريم في الروايات الإيروتيكية الغربية من خلال نشر عدد كبير من ترجمات الأعمال الإيروتيكية الشرقية بدءاً من القرن الثامن عشر عالماً مصغراً للتنوع البشري الشرقي، وكانت نساء الحريم في هذه الروايات إما مسيحيات، أو مسلمات شركسيات. كما كانت توصف الحريم باعتبارها جمعاً من النساء، كان الداء القاتل لها هو الضجر، وليس لها وسيلة تسلية سوى حديث الحريم الإباحي، ولذلك وصفن ضمن نمط مقولب بوصفهن ذوات جنسانية منفلتة، تلعب فيها العوامل المناخية دوراً هاماً.

وفي النهاية يخلص إلى أن الجنسانية، مارست دوراً هاماً في بناء فضاءات آخرية أوربا من خلال ترسيخ غيرية غير الأوربي، مما ساهم في مساعدة أوربا على معرفة ذاتها، وهويتها الخاصة، ومكانتها في العالم، كذلك شكلت المتخيل المكاني، الذي صارت ضمنه الكونيالية ممكنة الفهم، كما أصبح الرعايا الميتروبوليتانيون مجندين في خدمتها. إن المكان ليس مجرد حقل للفكر، بل هو جزء مكمل للتطبيق السياسي، وهو يجعل خرائطنا هي مجموعتنا النفيسة من المعرفة المرتبة مكانياً، وهي لا تعمل شيئاً سوى أنها تشكل حلقة في سلسلة طويلة من الكتابات فوق الكتابة ●